قرآن وعلم وأدب

كل نفس ذائقة الموت

١

معنى الموت

للدكتور احمد حسنين القفل

المتعارف عليه بين الناس ، ان الموت هو فقدان الكائن الحي لحياته ، بمعنى ان يفقد هذا الذي يموت قدرته التامة على مزاولة خصائصه المميزة له ككائن حي ، من حركة ونمو وتنفس ونشاط ونبض .. الخ . وعموما فالذي يموت يفقد ـ في عرف الناس ـ كل ما يتميز به الاحياء عن الجماد .

ولفظ (**نفس**) كما ورد في القران الكريم قد يعني ، الشخص او الفرد ، برمته اي جسدا و روحا كما قد يعني غير ذلك . فقد ورد في القرآن الكريم لفظ (**نفس**) على المعنى الاول في ايات كثيرة منها :

- (**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا**) . آل عمران / ١٤٥ .
- (**كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة**) آل عمران / ١٨٥ .
- (**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**) النساء / ١ .
- (**قال ياموسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس**) . القصص / ١٩ .

كما ورد في القران الكريم لفظ (**النفس**) بمعنى الروح دون الجسم في مثل قوله تعالى :

- (**وإذا النفوس زوجت**) التكوير / ٧ .
- (**ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم**) الانعام / ٩٣ .

وقد يأتي لفظ (**النفس**) بمعان اخرى ، كالطوية او الضمير او ما ينطوي عليه الفكر مكتوما دون ابداء او ... الخ ، وذلك في مثل قوله تعالى :

- (**إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها**) يوسف / ٦٨ .
- (**ولا أقسم بالنفس اللوامة**) القيامة / ٢
- **وتخفي في نفسك ما الله مبديه**) الاحزاب / ٣٧
- (**تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك**) المائدة / ١١٦

هذا وقد يرى الكائن الحي تحت ظرف من الظروف الطبيعية او الصناعية ، او حتى اثناء فترة من دورة حياته ، قد يرى مستكنا اي ساكنا دون حراك لفترة تطول او تقصر بحيث يلوح اثناءها لمن يلاحظه كما لو كان ميتا ، اذ لا تبدو عليه واضحة سمات الاحياء ولا مظاهرها ، لكنه لايلبث ان يستأنف الحياة من جديد .

١ ـ فقد لبث اهل الكهف في كهفهم في صورة الاموات تقريبا فترة بلغت ثلاثمائة من السنين وتسعا . وسجل القرآن الكريم هذه الظاهرة بشأنهم فقال سبحانه :

- (**فضربنا على اذانهم في الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أي**

الحزبين احصى لما لبثوا امدا) الكهف/ ١١ و ١٢

○ (**وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال**) الكهف / ١٨

○ (**ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا**) الكهف / ٢٥

٢ ــ وقصة « صاحب الحمار » الذي مات مائة سنة ثم بعث قد سجلتها سورة « البقرة » في قوله تعالى :

○ (**او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك اية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير**) البقرة / ٢٥٩ .

٣ ــ بل ان من الحيوانات ما تكون فيها ظاهرة الكمون « الكف عن مظاهر الحياة » في بعض مراحل حياتها ومثال ذلك دودة القز « دودة الحرير » وامثالها من حشرات تعرف علميا « بحشرات حرشفية الاجنحة » بل وكل الحشرات كاملة التبدل « التطور » عموما فان العذاري ــ وهي طور من اطوار حياتها ــ تسكن قليلا او كثيرا . وفي الحقيقة يكون هذا السكون ظاهريا فقط ، اذ ان الحيوان اي الحشرات في هذا الطور ان كانت تبدو أشبه بالاموات الا ان النشاط المستتر داخل اجسامها يكون على اشده ، بدليل انها تنقلب بعد ذلك الى فراشات نشيطة تؤدي مهامها في سبيل الابقاء على نوعها .

٤ ــ وهناك حيوانات تكمن في صورة تعرف علميا « بالحوصلة » متفادية بذلك ظروفا سيئة المت بها ولا تستطيع ان تجابهها لانها لاتلائم نشاطها الحيوي . ولكن هذه الظروف السيئة ليست بالدرجة التي توردها مورد التهلكة ــ ومثال ذلك حيوان كالاميبة ــ حيوان وحيد الخلية ــ واشباهها من الحيوانات وحيدات الخلية . فحين تسوء الظروف حولها ، فانها تكف عن نشاطها ، ثم تحيط نفسها بجدار مزدوج من افرازاتها تكمن داخله لفترة قد تصل الى عدة اعوام ان ظلت الظروف السيئة محدقة بها (قدر بعض الباحثين فترة الكمون هذه او التحوصل بثلاثين عاما ممتدة اي متصلة) ولكن عندما تعود الظروف المناسبة فان الاميبة سرعان ما تستعيد نشاطها من جديد .

واذا كان اصحاب الكهف قد امضوا في كهفهم نحوا من ستة اضعاف عمر الانسان على سبيل التقريب ، فان الاميبة المشار اليها انفا يكون عمرها (العمر بين انقسامين لجسمها) في الظروف المواتية لنشاطها نحو ربع الساعة او اقل . ومع ذلك فهي تمكث مستكنة في حوصلتها السنين الطوال . كما ان النشاط والسكون بالنسبة لها قد يتكرر المرة بعد المرة ، فالحياة بالنسبة لها ــ ولغيرها ــ ليست صفوا على الدوام . لكن المعجزة بالنسبة لاهل الكهف ــ ولصاحب الحمار

كذلك ـ هي ان ما حدث لهم كان خاصا بهم فقط لا يتكرر في النوع الانساني . كما يتكرر طبيعيا في الاميبة المشار اليها .

٥ ـ هناك حيوانات قد يقطع جسمها اربا اربا (اي اجزاء منفصلة) ومع ذلك فكل قطعة يمكنها ان تحتفظ بحيويتها فلا تلبث ـ اذا ما توفرت الظروف الملائمة لحياتها خاصة الرطوبة والحرارة والغذاء ـ ان تمتد حياة كل قطعة بمفردها ، بل انها ـ فوق ذلك ـ تنمو لتكون حيوانا كاملا شبيها بالحيوان الام يمارس نشاطه بالكامل من جديد (حيوانات العدار والتربلاريا) .

٦ ـ تعيش بعض الحيوانات وكأن لها ـ من الوجهة النظرية ـ امكانية الخلود . فالاميبة التي سبقت الاشارة اليها ، لو وفر للفرد منها ثم لكل ذرية ناتجة عنه كل الظروف المناسبة ، فان الموت ـ كما يبدو ـ لا يقرب منه ابدا . ذلك لان الاميبة ـ وهي خلية واحدة ـ حين تبلغ حدا معينا من النمو فانها لاتشيخ ولا تهرم ولكنها تنقسم الى فردين اثنين ، وهذان بعد نموهما الى حد معين ينقسم كل منهما الى فردين من جديد ..... وهكذا دواليك ما دامت الظروف المناسبة متوفرة (وسنفصل هذا الامر جليا فيما بعد) .

واذا كنا فيما سبق من حديث قد عالجنا لفظ « الموت » بمعناه الحقيقي وهو الكف عن النشاط وفقدان مظاهر الحياة في الكائن الحي ، فقد يكون للموت معنى مجازي لا يقصد به فقدان مظاهر الحياة وانما يقصد به فقدان الهداية والانحراف عن الجادة والهيام في ظلام الغواية ، وضلال الفكر ، وانغلاق العقل ، وعدم الانسجام مع المجتمع الصالح ... الخ . وفي مثل هذا المعنى يقول الشاعر العربي :

ليس من مات فاستراح بميت ... انما الميت ، ميت الأحياء

وقول الآخر :

لقد اسمعت اذ ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

ومن الناحية الايمانية ، فان القرآن الكريم يشير الى الكافر الذي يسمع نذر الهداية فلا يبالي ، ويرى آلاء الله في ملكوته فيعمى او يتعامى قلبه وبصيرته عن ادراكها ، هذا الذي يتجنب نور الايمان ليمشي في ظلمات الشرك ويؤثرها ويتخذ من دون الله اندادا يحبهم ويؤثرهم على خالقه ورازقه ، هذا الذي لايعبأ بنصح من نبي مرسل ، ولا بآيات من كتاب منزل هذا الذي ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة ، هذا الذي يصفه الكريم « بالميت » ويضعه في عداد « الاموات » رغم انه يدب على الارض ، يرى ويسمع ويبصر . وحين نتتبع آيات

القرآن الكريم بهذا الخصوص فاننا نجد :

١ ــ ان الذين تنشرح صدورهم لدعوة الرسول ونور الهدى وتخبت قلوبهم لله اذا تليت عليهم اياته ، يصفهم القران بانهم « احياء » فيقول المولى تبارك وتعالى :

○ **(وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقران مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين)** يس / ٦٩ و ٧٠

○ **(يا ايها الذين امنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)** الانفال ٢٤ .

ومن هذا المنطلق ، فان الله سبحانه وتعالى ــ وهو العليم بعباده ــ ما كلف رسوله (صلى الله عليه وسلم) الا بمهمة تبليغ الرسالة **(ان عليك الا البلاغ)** لافتا نظر رسوله الى عدم تكليف نفسه فوق طاقتها في هداية الناس الى الصراط المستقيم ، فسبحانه قادر ــ لوشاء ــ ان يجمع الناس على الهدى ، وان يجعل كل من في الارض جميعا مسلمين مؤمنين (احياء) . يقول سبحانه :

○ **(فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين)** المائدة / ٩٢ .

(وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض او سلما في السماء فتاتيهم باية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) الانعام / ٣٥ .

○ **(فإن أعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ)** الشورى / ٤٨ .

○ **(ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)** يونس / ٩٩ .

○ **(فلعلك باخع نفسك على اثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)** الكهف / ٦ .

○ **(لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين)** الشعراء / ٣ .

٢ ــ واذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ليس عليه الا البلاغ ، فان القرآن الكريم يسجل ان الذين يطيعون اوامره ، ويتبعون هديه هم « الاحياء » فهم الذين الزموا انفسهم بالعمل الصالح ، وعملوا كل ما يطيقون في سبيل تنفيذ منهج الله .

اما الذين كذبوه وادوه وقاوموا دعوته فهم « الاموات » . يقول سبحانه :

○ **(اومن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون)** الانعام / ١٢٢

○ **(من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)** النحل / ٩٧ .

٣ ــ ويتضح جليا مما سبق ان الناس من حيث استقبالهم لنهج الله فريقان :

مؤمنون (اي احياء) وكافرون (اي اموات) . وقد يخلق الله من ذرية الكافرين من يؤمنون به حق الايمان . وقد يهدي الله كافرا فيؤمن بعد الحاد .
وقد يكون العكس صحيحا ومن هنا كان تفسير قوله تعالى (**يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي**) كما جاءت في مواضع ثلاثة من سور القرآن ، ورابعها (**يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي**) كان التفسير هو اخراج المؤمن (الحي) من الكافر (الميت) او العكس .

وحين يخاطب الله رسوله في قرآنه فيقول تبارك وتعالى :

○ (**وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم . وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون**) المؤمنون / ٧٣ و ٧٤ .

فالصراط المستقيم هو نور الله الواضح ، ومنهجه الوضاء الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو « الحياة » لمن ينشد الحياة . اما الذين يتنكبون الصراط المستقيم مؤثرين السير في ظلمات بعضها فوق بعض فاولئك هم « الاموات » وان كانوا يتحركون ويسمعون ويبصرون .

٤ ــ والكافر الذي صمت اذناه عن سماع الحق ، وعمت بصيرته عن ادراك الحياة الكريمة في منهج خالقه ، وتحجر قلبه فلم يخبت لذكر الله ولم يوجل لاينظر القرآن الكريم اليه « كميت » فحسب ، بل ينظر اليه وكأنه قد سكن القبر ، فتأكد بذلك انعزاله كليا عن الحياة . يقول سبحانه :

○ (**وما يستوي الاعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من في القبور . ان انت الا نذير**) فاطر / ١٩ ــ ٢٣ .

○ (**فانك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما انت بهاد العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون**) الروم / ٥٢ و ٥٣ .

○ (**انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون**) الانعام / ٣٦

○ (**فتوكل على الله انك على الحق المبين . انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما انت بهادي العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون**) النمل / ٧٩ ــ ٨١ .

وخلاصة ما سبق من تفسير مجازي لمعنى الموت ، فان القرآن الكريم ينظر الى الكافرين الذين يعيثون في الارض فسادا ، يمشون عليها مستكبرين ، لايأتمرون باوامر الله ، ولا ينتهون عما نهى الله ، القرآن الكريم يعتبر هؤلاء « اموانا » مع ان لهم قلوبا تعي ولكنها لاتفقه ولا تزدجر ، وعيونا ترى وتبصر ولكنها تعمى عن الرشاد ، وتنصرف عن نور الهدى ، واذانا تسمع ولكنها تصم عن سماع الحق وصوت الرشد ، فلا تصيخ الا للكفر والالحاد والشرك . ويصف

القرآن الكريم هؤلاء المعاندين فيقول سبحانه :

○ (**إن الذين كفروا سواء عليهم انذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم**) البقرة / ٦ و٧ .

○ (**وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي اذانهم وقرا**) الانعام / ٢٥ .

○ (**أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم**) النحل / ١٠٨

○ (**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**) الاعراف / ١٧٩ .

○ (**افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور**) الحج / ٤٦ .

○ (**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**) محمد / ٢٤ .

وعلى عكس هؤلاء يكون فريق المؤمنين ، فقلوبهم عامرة بالايمان تفقه الحق وتعيه ، وآذانهم تسمع وعد الله ووعيده ، واعينهم تفيض من الدمع لما تعرف من الحق . يقول سبحانه في شأن هؤلاء :

○ (**الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**) الرعد / ٢٨ .

○ (**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم اياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون**) الانفال / ٢ .

○ (**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد**) الزمر / ٢٣ .

واذا كان القرآن الكريم يعتبر الكافرين « امواتا » مع انهم في واقعهم احياء يرزقون يدبون على سطح الارض ، فان القرآن الكريم في نفس الوقت يعتبر من مات في سبيل الله ، واستشهد جهادا في نشر كلمة الحق ودودا عن شريعة الله ، يعتبر القرآن الكريم هؤلاء « احياء » بل « احياء يرزقون » مع انهم في عرف من يعرفونهم « قد ماتوا » . يقول الحق تبارك وتعالى :

○ (**ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لاتشعرون**) البقرة / ١٥٤ .

○ (**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع اجر المؤمنين**) ال عمران / ١٦٩ ـ ١٧١ .